الاتجاهات السياسية في أدب الجاحظ

د. محمد كريم الجميلي
كلية التربية- الجامعة العراقية

ملخص البحث

عُرف الجاحظ بأنه أديب فرض نفسه في عصره وفي العصور اللاحقة، وفضلاً عن هذا كان ذلك السياسي المحنك الذي عاش حياته مدافعاً عن آراءه وأفكاره. وكان الجاحظ أحد كبار المعبرين عن وحدة الأمة وتماسك عناصرها وأجناسها والحفاظ على أصالتها العربية، لأن فكرة وحدة الأمة كانت من صميم رسائل الاسلام، وهي أساس فلسفة الخلافة في الحكم، لذلك جاءت كتبه في مناقب الأقوام والقبائل والمدن تبحث عما يجمع ولا يفرق لأجل إقامة التوازن بين أجناس الشعب المختلفة.

المقدمة

عُرف أبي عثمان الجاحظ بأنه أديب كبير وفيلسوف حاذق وكاتب من طراز فريد، فرض نفسه في عصره وفي العصور اللاحقة وحتى يومنا هذا، وطرح مادته العلمية والتاريخية والفلسفية والأدبية، وترك لنا أعظم ثروة أدبية يحق للأمة العربية والاسلامية أن تفتخر بأن لها مثل أبي عثمان في كل فنونه وآدابه التي أمتع ونفع بها أجيال بعد أجيال. فعبقريته هي التي جعلت منه سيد كتّاب العربية وأدبائها، فهذا ثابت بن قرة يقول: (ما أحسد هذه الأمة العربية الا على ثلاثة أنفس: عمر بن الخطاب في سياسته وعدله، والجاحظ في فصاحته وبيانه، والحسن البصري في عدله وورعه).

وكنت ممن حالفني الحظ وكتبت في دراستي العليا (الماجستير) عن حياة وابداعات أبي عثمان رغم أن الكتاب الذي حققته لنيل الشهادة كان منسوب اليه، فما أن ولجت في دراسة حياته وعلومه حتى أصبحت أعوم في بحر ليس له قرار، فحياة هذا الرجل في كل مراحلها فيها من العجائب والغرائب وما لا يستطيع أن يقوم بعبئه مؤرخ أو أديب أو شاعر أو ناثر.

ولا أزعم أني قد أتيت بجديد، فقد سبقني من الأساتذة والكتاب الكثيرون، ولكن حسبي أني كتبت عنه شيئاً لا بأس به، سواء بصيغة كتاب أو بحث في مجلة علمية، ومن الطبيعي أن

الكاتب لا يرهن مؤلفاته وبحوثه في اتجاه واحد وشخصية محددة، فالتنوع والتلون والتغيير هو أصل الوجود في هذه الحياة وسُنّة من سنن الكون، فكتبت بمواضيع شتى ولحقب تاريخية مختلفة، ولكن يأبى أبا عثمان أن يفارق مخيلتي فاضطر للرجوع اليه والكتابة عنه بموضوع جديد لأشبع رغبتي العلمية والأدبية في التجوال مع هذا الأديب والكاتب والفكاهي والمؤرخ، الذي لم يترك فناً أو علماً الا خاضه بفضول المتعلم والمستفيد لا بفضول الأستاذية التي نالها في شبابه.

ولذا حرصت على أن أكتب عن أبي عثمان كونه سياسياً بارعاً مارس السياسة بشكل أو بآخر من خلال مؤلفاته، واستطاع أن يخوض غمار ذلك المعترك الشائك الذي لم يكن مقتصراً على طبقة الخلفاء أو الوزراء أو الحاشية ورجالاتهم وصراعاتهم الخفية والمعلنة والتي لا تنهي ما دامت هناك مصالح ومنافع وكراسي حكم يتهافتون عليها.

ان دخول الجاحظ المناخ السياسي في عصر الدولة العباسية قد أضفى وأعطى له ميزة السياسي المتقلب المزاج، وهذا طبعاً من وجهة نظر القارئ والناقد الذي لا يراه يصلح لهذا المكان، كونه قد عُرف أديباً بارعاً لا سياسياً معارضاً، ولكنه يأبى أن يترك مجتمعه الذي عاش فيه دون أن يبدي وجهة نظره كفرد سواءاً كان مؤيداً أو معارضاً للسلطة الحاكمة آنذاك.

ففضلاً عن كونه الأديب المبدع والمفكر الرائد، كان ذلك السياسي المحنك، الذي تمتع بخلق سياسي رفيع، وعاش حياته مدافعاً عن آراءه وأفكاره، واذا كان بعض السياسيين العرب القدامى قد لاذوا بالتقية، فان الجاحظ لم يكن يؤمن بها، فقد اهتم بأمور الشعب، وراقب علاقة هذا الشعب بالدولة والدولة بالشعب، فشجع وانتقد، علماً انه قصر اهتماماته السياسية على الأمور الكبرى المؤثرة في الساحة بدون أن يدخل في تفاهات الأمور وصغارها، فنجا من مكر السياسة وخدعها ومتاهاتها.

لقد انتقد الجاحظ كثير من الكتاب الذين رأو أن أبا عثمان قد حشر نفسه في أمر هو ليس أهلاً له، ولا يمت لتوجهاته الفكرية والمجتمعية بأية صلة، فالسياسة لها أهلها وأصحابها ومنظّريها، ولا تليق هكذا صنعة بأبي عثمان الذي كان عليه أن يترفّع عن ذلك العالم الصاخب المشحون بالفتن والفوضى والمشاكل التي تؤدي بصاحبها الى الهلاك، وهذا فعلاً ما حدث له

وكاد يؤدي بحياته لولا لطف الله ثم بسبب براعته الأدبية الممزوجة بالفكاهة، فتخلّص من القتل والموت المحتّم.

ولقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم الى ثلاثة مباحث، فكان الأول بعنوان عصر الجاحظ السياسي والاجتماعي، أما المبحث الثاني فكان بعنوان مراحل اتصال الجاحظ بالسلطة العباسية في البصرة وبغداد وسامراء، أما المبحث الثالث فجاء تحت عنوان: مفهوم السياسة وأصولها عند الجاحظ، وانتهى البحث بخاتمة ثم سرد قائمة للمصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في ذلك.

المبحث الأول

عصر الجاحظ السياسي والاجتماعي

عاش الجاحظ في العصر العباسي الأول وشطراً من الثاني، وعمّر قرابة قرن كامل من الزمان وعاصر اثنا عشر خليفة عباسياً من سنة (١٥٩هـ - ٢٥٥هـ)، وكان هذا العصر حافلاً بالمشاكل السياسية الكثيرة على الصعيد الداخلي والخارجي، وهو بصفة عامة عصر صراع بين قوى مختلفة، صراع بين الثقافات المختلفة، وصراع بين العناصر المتباينة التي شملتها الدولة، وصراع بين النحل والمذاهب المتقاربة أو المتضاربة والمتنازعة فكرياً وعقائدياً كالمعتزلة والمحدّثين والمتكلمين والخوارج وغيرهم، وقد اتخذ هذا النزاع ألواناً شتى فضلاً عن الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها[١].

لقد قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة، واستعانت بالعرب المناهضين للدولة الأموية، والفرس الذين شكلوا قوة أساسية في الجيش العباسي، فرجحت بذلك كفة الأعاجم بسبب سيطرتهم على زمام الأمور وأعنّة الشؤون الداخلية والخارجية، مما أدى الى نقل الحكم الاسلامي من طور الى طور، فتغيرت طبيعة الحياة السياسية والمجتمعية للدولة، فبدأت تبتعد عن عاداتها وصفاتها، فقلّ لذلك شأن العرب واقتصر أمرهم على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الدولة التي أصبحت أممية اسلامية أكثر منها عربية اسلامية[٢].

ونتيجة لذلك قوي نفوذ الفرس وتغلغل في صلب الدولة، فكان منهم أكثر الوزراء والقواد والكتّاب، فأدخلوا أنظمتهم السياسية في الحكم المطلق، وأصبحت قصور الخلفاء في بغداد أشبه

بقصور الأكاسرة، كما أدخلت طرائقهم في تنسيق وترتيب الدواوين ونظم الحرب وأساليب الحكم(٣).

ولم تمض فترة من الزمن حتى انتقلت سياسة الدولة من أيدي الفرس الى أيدي الأتراك، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً، بحيث أصبح لهم النفوذ التام على الخلافة والخلفاء، فاعتدوا عليهم ونكلوا بهم، وتعرضوا كثيراً للمجتمع العربي، وسببوا له المشاكل والفوضى لعدم احترامهم لحقوق الأمة، مما أدى الى قيام الاضطرابات في بعض أقاليم الدولة(٤). فكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ويتعرضون للحرم، فمقتهم المجتمع الذي عبّر عنه الشاعر دعبل الخزاعي (ت٢٤٦هـ) فقال يهجو المعتصم:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف أشناس وقد عظم الخطبُ

وهمّك تركـــي عليــه مهانـــة فأنت لـــه أم وأنت لــه أبُ(٥)

وفي خضم هذه الفوضى كانت الثورات مضطربة في شرق الدولة اتخذت أسماءً وألواناً ودعايات مختلفة، كلما خمدت ثورة اندلعت أخرى، كالراوندية والزنادقة، وكان آخرها ثورة بابك الخرمي في أذربيجان التي ظلّت نحو عشرين عاماً، وكلفت الدولة الكثير من الجيوش والأموال الى أن سحقها المعتصم وقضى عليها(٦).

أما عن طبيعة الحياة الاجتماعية في البصرة التي قضى فيها الجاحظ معظم حياته، فهو مجتمع يحتوي على أخلاط وأجناس كثيرة من البشر كالعجم والفرس والعرب والأتراك والأحباش. وقد كان لاختلاطه بكل تلك الأجناس باعث على فهم طبائع الأمم وقراءة أفكارها وتحليل أساليب حياتها وفق تلك النظرة التي عاينها عن قرب.

فالعنصر الفارسي كان عماد الدولة في نظامها السياسي والاداري، وقد تأثرت الدولة العباسية بهذا العنصر تأثيراً مباشراً في بعض تقاليدهم العامة والخاصة، فقد كان الفرس العام يتمثل في حب السيادة والترف والبذخ والقدرة على تنظيم ادارته للدولة وتسيير دفتها.

وكان هذا الاسهام من قبل الفرس فاعلاً وكبيراً، لا سيما في الحياة السياسية والاجتماعية، وقد أدرك الجاحظ هذه الحقيقة وعبر عنها بقوله: (وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى الينا من كلام خلفائنا من ولد العباس، ولو أن دولتهم عجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية)(٧).

أما الأتراك فقد أصبح لهم النفوذ في الدولة بعد أن قضوا على نفوذ العرب والفرس، فتولوا المناصب الرفيعة في الدولة، واستأثروا بها، وكانت ثقافتهم قليلة جداً أو معدومة، وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة واهية، وكان فيهم عبث وشراهة في جمع الأموال(٨). وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة، فكثرت الجواري التركيات في قصور الخلفاء والأثرياء، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات، والطابع العام للأتراك حب الجندية والفروسية والبعد عن الفلسفة والجدل، وحب المال وجمعه من أية سبيل.

أما العنصر العربي فقد أقصي عن النفوذ وضعف شأنه في الدولة والخلافة، وكان للمعتصم في ذلك شأن معروف، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون في الشام والجزيرة، حيث كوّنوا لهم دويلات عديدة، وطابعهم المشهورين به هو الزهو والفخر والاعتداد بالنفس والاعتزاز بها، وحب الفضيلة والميل الى الأدب والرغبة في السيادة(٩).

كان مجتمع الجاحظ غريب وشائك من كل النواحي والاتجاهات، فهناك تحزّب من جانب الأعاجم، وتعصب من جانب العرب، وصراع بين الأفكار وجواذب كلامية ومناقشات سفسطائية، وكلها تذوب فيها كتب الجاحظ، ويبعث الى أقاصي الشرق والغرب، فيعمل عمله في إثارة الآراء وحفز الهمم وحشد الجهود للتقصي والمتابعة(١٠).

ان تنوع الحياة الاجتماعية في العصر العباسي قد أدت الى قيام فرق ونحل ومذاهب فكرية ودعايات سرية مزجت الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية، فعاش الناس بين مختلف تلك العناصر والأجناس وفي صراع شديد بين الآراء والمذاهب، بين العرب والموالي بين العروبة الخالصة والشعوبية الجامحة، بين حياة الزندقة وحياة الايمان بين عيشة الجد وعيشة اللهو، وقد انعكس كل ذلك في صنوف الأدب شعراً ونثراً(١١).

وكان للجاحظ نصيب كبير في تصوير المجتمع العباسي على مختلف أحواله، حتى غدت مصنفاته مصادر أساسية لدراسة البيئة العباسية(١٢). ولقد عاش الجاحظ في تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً، يراقب وينظر ويختبر، يمتزج وينعزل. وهكذا كان العصر كله مصوراً في ذاته وفي كتبه تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات، فكان بذلك علماً من أعلام التاريخ والأدب وركناً من أركان العلم والتحري.

المبحث الثاني

مراحل اتصال الجاحظ بالسلطة العباسية

لقد هيأت حواضر دولة الخلافة العباسية الثلاث (البصرة وبغداد وسامراء) آنذاك فرصة نادرة للتأليف والكتابة والاتصال بكبار الأدباء والمفكرين ورجال السياسة وصولاً الى بلاط الخلفاء كالمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ووزرائهم ومتقدميهم، كالفتح بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبي دؤاد، فنال جوائزهم وتمتع برعايتهم وتشجيعهم.

أولاً: في البصرة

نشأ الجاحظ وترعرع في البصرة موطن العلماء والنحاة والأدباء والمفكرين، فمنذ أن فتح عينيه على الدنيا اذا به فقيراً معدماً، لا يكاد يملك قوت يومه، ويعيش مع أمه المسكينة التي كانت تتكفل معيشته وتنفق عليه بأن ترسله الى نهر سيحان بالبصرة ليبيع الخبز والسمك(١٣).

وعلى ما يبدو فان هذه المرأة (أم الجاحظ) ورغم حالتها المزرية وفقرها المدقع، لم تبخل عليه سواء بنصيحتها له أو بتشجيعها له أو باعطاءه المال اليسير، ليذهب الى الكتاتيب ويتعلم مختلف العلوم والآداب أسوة بصبيان البصرة، الذين كانوا يتجمعون في حلقات بمسجد البصرة حول كبار المشايخ كأبي عبيدة(١٤)، والمدائني(١٥)، والأصمعي(١٦)، وغيرهم، والذين كانوا يسمَون (بالمسجديين).

ولكنه على ما يبدو لم يستطع أن يرضي أمه تمام الرضا، وبقيت حالة الفقر ملازمة لهما، وكان عليه أن يوازن بين عمله المتواضع وطلبه للعلم، فقد روى أهل الأدب " انه كان في حداثته منشغلاً بالعلم وأمه تموّنه، فطلب الطعام يوماً، فجائته أمه بطبق عليه كراريس، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا الذي تجيء به كل يوم، فخرج مغتماً وجلس في الجامع وكان مويس بن عمران وهو أحد سُراة البصرة جالس، فلما رآه مغتماً قال له: ما شأنك؟ فحدّثه الحديث ، فأخذه معه الى المنزل، وقرّب اليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق واشترى السمن الدقيق وما يحتاج اليه، وحمله الحمالون الى داره، فأنكرت الأم ذلك وقالت: من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التي قدمتِها إليّ"(١٧).

لم يقتصر نشاط الجاحظ الأدبي على حلقات المسجديين، بل تعداه الى منهل آخر من مناهل العلم في البصرة وهي بيوت الأمراء العباسيين التي كانت بحق أحد أهم المنتديات الأدبية فيها.

وكانت أشهرها دور آل سليمان، وهم أبناء سليمان بن علي عم أبي العباس السفاح، وكان أبو العباس قد وجه سليمان الى البصرة وأعمالها فاتخذها هو وأولاده مقاماً لهم، وبنَو فيها دورهم وهولاء هم: (علي ومحمد وجعفر واسحاق وعيسى وموسى)[١٨].

وكان لكل واحد من هؤلاء مزاجه واتجاهه الأدبي والمعرفي الخاص به، فقد كانت لهم مجالس علمية تحفل بها دورهم ونواديهم الأدبية والتي كانت تعج بالمفكرين والأدباء والشعراء واللغويين والنحاة[١٩].

والى جانب هذه الأسرة المقربة من بيت الخلافة العباسية كانت هناك أسرة علمية أخرى من البيت العباسي الحاكم، وكانت تتخذ من دورها كذلك مثل تلك الأندية، وهي أسرة أبي جعفر المنصور، ولعل اتخاذها البصرة مقاماً لها حين أقام الرشيد جعفراً هذا والياً عليها، ثم جعل يعاقب بينه وبين أبناءه في ولايتها، فسكنوها وأقاموا لأنفسهم الدور فيها، وكان من أولاد جعفر هؤلاء أيوب وداود واسماعيل وعيسى. فأما أيوب فكان من أصحاب اللسن والبلاغة، ويروي الجاحظ عن مويس بن عمران وصفه له بأنه كان من أنطق الناس، لم ير أنطق منه ومن يحيى بن خالد البرمكي[٢٠].

وقد أبدى الجاحظ اعجابه به فقال:(لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والأقدار الرفيعة)[٢١].

وكان داره على ما يبدو ملتقى لأهل العلم وأصحاب النزعات الفكرية كالمتكلمين والمحدثين وغيرهم، وكان أبرز من يرتاد ذلك الدار أبو اسحاق النظّام شيخ الجاحظ، وثمامة بن أشرس الذي تعمقت صلته بالجاحظ والتحق به الى بغداد حيث كانا أبرز من يتصدر مجلس المأمون الذي تبنى مذهب الاعتزال وجعله المذهب الرسمي للدولة[٢٢].

لقد ظل أبو عثمان طيلة فترة حداثته يرى كيف تتشكل المملكة الاسلامية في كنف خليفة بغداد، وكيف أصبح عليه أن يجدّ في تحصيل العلم كما يجدّ الموالي ليصل الى هذا الخليفة، بادئاً بعظيم ما في بلدته ومتحولاً الى أمير فأمير، وعينه ترنو الى بغداد[٢٣].

لقد كان العهد البصري بالنسبة للجاحظ هو عهد التحصيل والفاقة الشديدة في كسب الرزق، ويحاول شق طريقه في عالم التأليف والفكر والأدب، دون أن تلقى مؤلفاته رواجاً كما يخبرنا هو عن نفسه[٢٤].

ثانياً: في بغداد

بعد أن أخذ الجاحظ نصيبه الوافر بين أدباء مجتمعه في البصرة، فخالط كبار علماء عصره وأخذ عنهم الشيئ الكثير، وبدأت شهرته تتخطى الحدود الجغرافية للبصرة، ولم يكن يكتفي بما وصل اليه من الطموح الأدبي بعد بلغ من البراعة في الجدل وروعة في المناظرة، ودقة في الكتابة، فلم يعد ليقتنع بالبقاء فيها، وبدأت عينه ترنو الى بغداد حاضرة الخلافة العباسية، حيث البيئات الأدبية الرفيعة في قصور الخلفاء والوزراء والسُراة.

لقد سبقه في الرحلة الى بغداد أصحابه وأقرانه وأفراد جيله كأبي نؤاس والحسين بن الضحاك، فيتصل مثله بأبناء الخليفة ورؤساء دار الخلافة، ثم اذا بالدنيا تردد قصائدهما وتتجاوب بأشعارهما، وكذلك فعل أبان اللاحقي والفضل الرقاشي وأبي عبيدة وقطرب النحوي وغيرهم من أدباء وشعراء البصرة وفتيانها، قد فتنتهم بغداد واستدرجتهم اليها، فانطلقوا نحوها، وقد وجدوا في الخصومات بدار الخلافة بين الفضل بن الربيع والبرامكة ما بنوا به مجدهم الأدبي[٢٥].

بعد أن وصل الجاحظ بغداد في سنة ٢٠٤هـ وفي الوقت الذي قدِم فيه الخليفة المأمون اليها، وفي هذا الوقت يكون الجاحظ قد ناهز الخمسين من عمره، فاتخذها دار إقامة له، فاتصل بالكبار من رجال الدولة والعلماء من كل فن، فنَبَهَ أمره وعظمت شهرته، واشهرت معارفه، فقصده العلماء، وأمّه الأدباء، وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس وعلى اختلاف الملل وتباين النحل[٢٦]

وعن اتصاله بالمأمون يحدثنا الجاحظ فيقول: (ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة، فوجدها على ما أمر به، وصرت اليه، وكان قد أمر اليزيدي[*] بالنظر فيها ليخبره عنها – قال لي: قد كان بعض من نرتضي عقله ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة..وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ولا يفتقر الى المحتجين عنه، قد جمع

استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي)[٢٧].

تعمقت صلة الجاحظ بالخليفة المأمون بعد أن رأى مهاراته في الكتابة وسعة الثقافة، فكلّفه بكتابة كتاب (العباسية) والاحتجاج لها، ففعل الجاحظ وقدمه للخليفة ونال الحظوة لديه، وعلى ذلك فقد وجد المأمون في كتابات الجاحظ عن الإمامة ما يلتقي مع قناعاته ويساعده في تقوية حجة الخلافة العباسية في مواجهة خصومها لذا فقد أمر بإحضاره من البصرة ليكون قريباً منه[٢٨].

وكان ثمامة بن أشرس هو حلقة الوصل بين المأمون والجاحظ، فعن طريقه وصل الى المأمون كتاب الجاحظ في الإمامة الذي أعجب به المأمون وأذن للجاحظ أن يدخل عليه وأن يكون من جلساءه[٢٩].

بعد تلك الشهرة العريضة والواسعة أصبح له صدى داخل البلاط العباسي، وذلك من خلال مجالس المأمون العلمية والمناظرات الفكرية التي اشتهرت بها تلك المجالس، بعد أن أطلق الحوار والمناظرة وأباح الكلام وسمح بالجدال في ذلك، فوفرت للناس الأسباب التي أدّت للتعبير عن آرائهم مما أدى الى كثرة الفرق والتيارات السياسة في عصره[٣٠].

لقد كان المأمون يعشق تلك المجالس أشد العشق، لأنه كان عالم متفلسف واسع الثقافة عميق المعرفة قوي الحجة بارع الجدل، وكان يناظر الأدباء والفلاسفة بنفسه ويفوقهم علماً وقدرة على الاقناع. وكان كبير المعتزلة البارزين ثمامة بن أشرس الذي قدم الى بغداد في عهد الرشيد والمأمون، وله أخبار كثيرة يستشهد بها الجاحظ في كتبه البارزة كالحيوان والبيان والتبيين والبخلاء، قد سجن في عهد الرشيد ثم أطلق سراحه. ثم لم يلبث أن ارتفعت مكانته عند الخليفة المأمون، وكان فوق منزلة الوزراء، وقد عرضت عليه الوزارة بعد موت الفضل بن سهل فاعتذر عن قبولها، ولكنه كان مع هذا صاحب الرأي فيها باختيار الوزراء وترشيحهم، وكذلك كان صاحب القول في توجيه سياسة الدولة[٣١].

وكان ثمامة أيضاً قد أقنع المأمون بتعيين يحيى بن أكثم على قضاء البصرة. ويبدو ان كلمته كانت نافذة عند المأمون نظراً لما يتمتع به من منزلة علمية وشخصية عند الخليفة، وبتأثيره أسندت الى الجاحظ مهمة رسمية في البلاط وهي إدارة ديوان الرسائل، وهذا الديوان

يختص بأهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة ولا يتولاه إلا الحاذق الذي ضرب بالسهام الوافرة في مختلف العلوم والآداب، وصاحب السياسة والتدبير والمتفوق في صنوف البلاغات وضروب الإبانات(٣٢).

ولكن أبا عثمان لم يبق في ذلك المنصب سوى ثلاثة أيام فقط فطلب اعفاءه فأعفي منه. وقد علَّق سهل بن هارون على ذلك بقوله: (لو ثبت الجاحظ في هذا الديوان لأفلَ نجم الكتّاب)(٣٣).

أما الاستاذ شفيق جبري فيعلّق على هذه المسألة فيقول: (ان رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة، ليصعب عليه أن يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه، يعمل لرجال ربما يعتقد أنه أرفع منهم منزلة وأعلى شأناً، فما وسعه إلاّ ترك الديوان حتى يتبسط في أفق أعلى، فلم يُخلق لأمثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد)(٣٤).

على أن هناك فريق من الأدباء وعلى رأسهم الأستاذ محمد كرد علي قد لامَ الجاحظ على فعلته هذه باستعفائه من ديوان الرسائل وقال: (لم أرَ أغبن من الجاحظ لنفسه وإن كان أوحد البلاغة في عصره، فما باله يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة، وقد رأى ابن الزيات والصولي بلغا فيهما ما بلغا وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما)(٣٥).

ولكن الجاحظ آثر أن يكون أميراً في عالمه، عالم الأدب على أن يكون رئيساً في ديوان من دواوين الدولة، فهو لم يثبت في ديوان الرسائل لأنه كان يعيش عيشة يحسد عليها، فقد سأله أحدهم: (يا أبا عثمان كيف حالك؟ فقال الجاحظ: سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً، حالي أن الوزير يتكلم برأيي ويُنفِذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إليّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب أفخرها، وأجلس على ألين الطبري، وأتكئ على هذا الريش، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج! فقال له الرجل: الفرج ما أنت فيه! قال: بل أحب أن تكون الخلافة لي، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ويختلف إليّ، فهذا هو الفرج)(٣٦).

ويرى الكثير من الكتاب المعاصرين(٣٧) ان في هذا النص ما يدل على أن الجاحظ كان له طموح سياسي بتولي منصب الخلافة وتكون الزعامة له أيضاً في دولة السياسة، باعتبار أن النص صريح بما كان يتمناه الجاحظ، ولكني أرى أنه لم يقصد ذلك اطلاقاً، انما قالها بداعي الفكاهة والدعابة التي امتاز بها الجاحظ من بين أدباء عصره، فأين هو من الخلافة في كل

أحواله وشؤونه! فقالها تهكماً ومازحاً ليمتع بها نفسه ومن كان حاضراً أو سامعاً لذلك الخبر الخطير والظريف بنفس الوقت!!.

وللأستاذ شفيق جبري رأي عن تلك الخصيصة عند الجاحظ فيقول: (الى جانب هذا المذهب الذي ذهبه الجاحظ في الضحك والاضحاك مذهب آخر وهو التهكم..فصاحبهما يحتاج الى شيئ من خفّة الروح..وقد يكون هذا التهكم لباس فكرة فيها فرح وسرور أو صيغة مزح روحاني)[٣٨].

أما الأستاذ نوري جعفر فيقول: (وعرف الجاحظ أيضاً بالظرف والدعابة وخفّة الروح وبالتهكم أو السخرية اللاذعة، ويمزج الهزل بالجد الى جانب اتصافه بالطبع بالصرامة والحزم الفكري..)[٣٩]. ويقول أيضاً: (للجاحظ قدرة عجيبة في خلط الجد بالهزل بشكل يتعذّر على المرء أن يميز بينهما في كثير من الأحيان)[٤٠].

وللأستاذ جميل جبر رأي آخر فيقول: (كان أبو عثمان مفطوراً على التهكم، كان يحب النكتة للنكتة، يقولها حتى لو انقلبت عليه)[٤١].

وأخيراً نستطيع أن نقول ان العهد البغدادي هو عهد العطاء والغنى والشهرة، وقد استمر هذا العهد نحو نصف قرن من الزمان عاش الجاحظ فيه مقرباً من قصر الخلافة، حائزاً على رضا أصحاب السلطان يخدمهم بقلمه ويحظى منهم بالرعاية والعطف والأموال والهبات[٤٢].

ثالثاً: في سامراء

بعد وفاة المأمون عام (٢١٨هـ) وتولي المعتصم زمام الأمور في الدولة، انتقلت الخلافة العباسية من بغداد الى سامراء سنة٢٢١هـ وينتقل معها الجاحظ ليكون أيضاً من المقربين للبلاط، وجعلته يتصل بكبار رجال السياسة والادب، كابراهيم بن العباس الصولي والفتح بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات وأحمد بن أبي دؤاد[٤٣].

كان المعتصم على ما يذكر المؤرخون ضعيف الكتابة، لأنه كان عسكرياً بطبعه ورجل شدة وحرب، على خلاف اخوته الأمين والمأمون، وكانت الأجواء السياسية في تلك الفترة لا تخلو من مشاكل، فاستوزر محمد بن عبد الملك الزيات، وجعل الشخصية المعروفة أحمد بن أبي دؤاد قاضياً للقضاة بعد أن عزل يحيى بن أكثم منها[٤٤].

حاول الجاحظ أن يتصل بالخليفة المعتصم فلم يستطع، فقد كتب رسالة (مناقب الترك) في أيامه وأراد أن يوصلها اليه، ولكنها لم تصل لأسباب لا نعلمها، واعتذر الجاحظ عن ذكرها معللاً ذلك بأن الحديث عن تلك الأسباب يطول شرحها(٤٥).

كان أهم ما يلفت النظر بالنسبة للجاحظ علاقته بالوزير ابن الزيات الذي كان "كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً"(٤٦) ، فأصبح من أشد المقربين اليه، وهو الذي قرّبه من السلطة، فأصبح ذا حظوة شديدة عند الخليفة ورجال دولته، ثم أقطعه ابن الزيات أربعمائة جريب في الأعالي(٤٧)، وهي مساحة تدر عليه مالاً وفيراً وتؤمّن له عيشاً رغيداً. ولم يلبث الجاحظ بعد أن انتهى من تأليفه كتاب الحيوان أن يهديه اليه، فكافأه ابن الزيات على ذلك بخمسة آلاف دينار(٤٨).

لقد كانت فرصة انتقال الجاحظ الى سامراء قد هيأت له أسباب الجاه والثراء، فقد سأله ميمون بن هارون: أَلَكَ بالبصرة ضيعة؟ فتبسم وقال: إنما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخيل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج الى تجديد ولا تسميد(٤٩).

لقد مهدت له ثروته التي جمعها الى اقتناء الخدم، ومن جملتهم خادم يدعى نفيس(٥٠)، وربما ابتاع بعض الخدم الذين خدموا أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك(٥١).

كان ابن أبي دؤاد مختص بالخليفة، حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا برأيه، لأن أحمد هذا كان من أصحاب المروءة والفضل والعلم على ما يقول الرواة، وهو من أصحاب واصل بن عطاء ومن القائلين بخلق القرآن. ونظراً لمكانته الرفيعة عند الخليفة فقد جعله المأمون موضوعاً من موضوعات وصيته الى أخيه المعتصم فقال له: (وأبو عبد الله بن أبي دؤاد فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فانه موضع لذلك منك). وقد فعل المعتصم كل ما أوصاه به أخاه(٥٢).

ولما مات المعتصم وقام بالخلافة بعده ابنه الواثق سنة ٢٢٧هـ الذي أقرّ ابن الزيات على الوزارة ولم يعزله، بعد أن كان ساخطاً عليه في أيام أبيه، وحلف يميناً مغلّظة أنه ينكبه اذا صار الأمر اليه، فلما ولي أمر الكتّاب أن يكتبوا ما يتعلق بأمر البيعة فكتبوا فلم يرض بما

كتبوه، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها، وأمر بتحرير المكاتبات عليها، فكفّر عن يمينه وقال: (عن المال والفدية عن اليمين عِوض وليس عن المُلك وابن الزيات عِوض)[٥٣].

كان عهد الخليفة الواثق عهد عز وخير بالنسبة للجاحظ وسائر المعتزلة، اذ كانت مكانتهم عالية وعقيدتهم محترمة، فقد غلب عليه قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد وابن الزيات الوزير وكلاهما معتزليان، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يخالفهما فيما رأياه[٥٤].

وهكذا فقد تمتع الجاحظ لمدة تزيد على الثلاثين سنة بمركز رفيع من الخلافة بسبب تبنيها لمذهب الاعتزال واعتمادها على رجالهم في الادارة والدعوة.. لقد شعر الجاحظ في هذه المرحلة بعز السلطان ونفوذه، وربما راودته نفسه لبلوغ مقام أعلى وأرفع مما هو فيه[٥٥].

ثم يأتي عهد الخليفة المتوكل على الله بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ فكان اتصال الجاحظ بالخليفة عابراً، فلم تتوثق علاقته به كما توثقت بأسلافه المأمون والمعتصم والواثق، فقد استدعاه المتوكل الى قصر الخلافة لتأديب بعض ولده، وفي ذلك يقول الجاحظ: (ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني)[٥٦].

ولئن لم يحالفه الحظ في التقرب من شخص الخليفة، فقد وفق الى كسب ود المقربين اليه أو أصحاب السلطة أمثال أحمد بن أبي دؤاد (ت٢٣٩هـ) والفتح بن خاقان (ت٢٤٧هـ) والصولي (ت٢٤٣هـ).

تولى المتوكل الخلافة وفي نفسه شيئ من ابن الزيات، وكان سبب ذلك الحقد أنه لما مات الواثق بالله أخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق، وأشار ابن أبي دؤاد بتولية المتوكل، الذي استوزر ابن الزيات ليوقع به ويصادر أمواله فيما بعد، وفعلاً حصل ذلك[٥٧].

كان الجاحظ ملازماً لابن الزيات خاصاً به، ومنحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد، وكانت الخلافات والعداوة بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد عميقة جداً، فلما قُبض على ابن الزيات هرب الجاحظ الى البصرة متخفياً، فقيل له: لمَ هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين اذ هما في التنور، يريد ما صنع بابن الزيات عندما أدخلوه في تنّور حديد فيه مسامير كان قد صنعه ابن الزيات نفسه ليعذب به خصومه، فعُذب حتى مات[٥٨].

ولكن الجاحظ لم ينج من عقاب ابن أبي دؤاد، فقد تم القاء القبض عليه وجيئ به مقيداً بالسلاسل الى ابن أبي دؤاد الذي نظر اليه عبوساً وقال بغضب: والله ما علمتك إلاّ متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، مقدّراً للمساوئ، وما فُتّني باستصلاحي لك! ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويَّتك ورداءة دخيلتك وسوء اختيارك.

فقال الجاحظ: خفّض عليك – أيدك الله – فو الله لئن يكون لك الأمر علَيَّ خير من أن يكون لي عليك، ولئن أُسيء وتُحسن، أحسن من أن أُحسن وتُسيء، وأن تعفو عني – في حال قدرتك – أجمل من الانتقام مني.

فقال ابن أبي دؤاد: قبّحك الله، ما علمتك إلاّ كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر..ما تأويل هذه الآية؟ "وكذلك أخذُ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد" قال الجاحظ: تلاوتها تأويلها أعزَّ الله القاضي.

فقال القاضي: جيئوا بحداد، فقال الجاحظ: أعزَّ الله القاضي ليفُكَّ عني أو ليزيدني؟ فقال: بل يفُكُّ عنك، فجيء بالحداد، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنّف بساق الجاحظ ويطيل أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ وقال: إعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة! فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه، ثم قال القاضي لمحمد بن منصور وكان حاضراً: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه..يا غلام سر به الى الحمام وأمِط عنه الأذى، واحمل اليه تخت ثياب، وطويلة، وخفّاً، فلبس ذلك، ثم أتاه فتصدَّر في مجلسه، ثم أقبل عليه وقال: هات الآن حديثك يا أبا عثمان(٥٩).

وهكذا انتصر الجاحظ بأدبه على خصومات السياسة، وارتفع على التهمة.. وان عبقريته كانت أبعد مدى من أن تدخل في الصراعات المنتهية، فإن فكره لم يُخلق لعصره، وانما خُلق للعصور الآتية ليبقى خالداً في أدبه الإنساني الذي يشع بالتسامح والحب والانصاف(٦٠).

ولكن رغم ما حصل له من مشاكل بسبب السياسيين المتنازعين على النفوذ، فإن خلاف الجاحظ مع السلطة لم يزدها الا حباً فيه ولم يزده الا قرباً منها(٦١). وفي هذه الأثناء صنف الجاحظ كتابه (البيان والتبيين) وأهداه الى ابن أبي دؤاد الذي أكرمه وأعطاه خمسة آلاف دينار.

توثقت علاقة الجاحظ بالفتح بن خاقان الذي كان وزيراً للخليفة ومن أشد المقربين اليه، بحيث أن المتوكل لا يصبر عنه قدر ساعة، وقد قتل معه سنة ٢٤٧هـ على يد الأتراك(٦٢).

وكان الفتح من الشخصيات السياسية والأدبية المرموقة وله تصانيف كثيرة، وعن طريقه تقرَّب الجاحظ الى الخليفة المتوكل، وبتأثيره أيضاً وضع الجاحظ رسالته في "مناقب الترك". وكان الجاحظ يصحب الأمراء والوزراء في أسفارهم ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي سافر معه الى دمشق(٦٣).

لقد كانت الخلافة في عهد المتوكل تشعر بحاجتها الى فكر وقلم الجاحظ، لذا حرص الفتح على الاستعانة بالجاحظ في مواجهة التحديات الفكرية القائمة آنذاك(٦٤)، فقد كلف الجاحظ بناء على طلب الخليفة أن يؤلف كتاباً في " الرد على النصارى" بعد أن بعث الفتح رسالة كتبها من عاصمة الخلافة ببغداد الى أبي عثمان بالبصرة وقد جاء فيها: (إن أمير المؤمنين يجد بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، ولقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه، فزدتك في نفسه زيادة كفَّ بها عن تجشيمك، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى، وافرغ منه وعجّل به إليَّ..)(٦٥).

ومن خلال هذا النص نفهم أن الجاحظ كان يعيش في عهد الخليفة المتوكل في أموال وافرة ونفوذ عريض، ونفهم أيضاً أن السلطة العباسية المتمثلة بشخص الخليفة والوزير كانت ترى في الجاحظ أحد المروّجين لها والمدافعين عن سياستها مع الكثير من الفرق والتيارات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك، فاحتاجت الى من يرد على حجج الخصوم باسلوب بليغ وجزل وعميق وحجج داحضة، فلم تجد تلك المواصفات إلا في أبي عثمان الذي تصدى للرد على النصارى، فكان عند حسن ظن السلطة السياسية للدولة بقلمه وأفكاره(٦٦).

وبعد أن قُتل الخليفة المتوكل ووزيره ابن أبي دؤاد على يد الأتراك سنة ٢٤٧هـ بدأت فوضى الحكم والتسلط التركي، عاش فيها الجاحظ وشاهد الأحداث عن قرب، وشهد عهود ثلاثة خلفاء آخرين وهم المنتصر والمستعين والمعتز من ٢٤٨هـ – ٢٥٥هـ ، فآثر الابتعاد عن تلك الأحداث الدامية والصراعات المريرة التي شهدتها دولة الخلافة في سامراء وبغداد ورجع الى مسقط رأسه ومرتع صباه وشبابه في البصرة.

وكانت هذه المرحلة مباركة، ففيها وضع الجاحظ أكبر كتبه وأعظمها منزلة وأبعدها أثراً في المجتمع العربي، ولعل العزلة أو شبه العزلة التي أتيحت له في البصرة بعيداً عن السلطان وعن تلك الحياة السياسية والاجتماعية المعقدة ما مكّن له من التفرغ لتصنيف الكتب المطوّلة وجعله يحيا حياة خالصة للقراء والكتابة(٦٧).

وهكذا نلاحظ أن الجاحظ قد استطاع أن ينال في حياته احترام واعجاب الخلفاء والوزراء على اختلاف نزعاتهم وميولهم، فضلاً عن المكانة التي احتلها في نفوس العامة والخاصة في عصره وحتى الوقت الحاضر(٦٨).

المبحث الثالث

مفهوم السياسة وأصولها عند الجاحظ

للسياسة مفهوم خاص عند الجاحظ لا يفهم على أساس الطريقة التي يسوس بها رئيس الدولة لرعيته، وانما هي بمجملها رعاية مصالح الناس وتدبير أمورهم ومعاشهم من قبل الرئيس أو السلطان، وذلك بأن يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم، وكثيراً ما يستعمل الجاحظ لفظة السياسة مقترنة بلفظة التدبير.

وكذلك فرض على الأئمة (الرؤساء) أن يحموا عامة الناس دولتهم بالحراسة لها والذود عنها وذلك بردّ قويها عن ضعيفها ووجاهلها عن عالمها، وظالمها وسفيهها عن حليمها، فلولا السائس ضاع المسوس، ولولا الراعي لهلكت الرعية(٦٩).

وهذا يعني أن يفعل الحاكم مع الرعية لكسب طاعتهم، لذا فعليه أن يرغّبهم بما يحبونه، كما عليه أن يحذرهم مما يكرهونه، وينفّذ ما حذر من، وهذان الأصلان يتفقان مع أحد المبادئ الأساسية للمعتزلة وهو (الوعد والوعيد)(٧٠).

ويرى الجاحظ أن الرئاسة أمر ضروري أوجده الله تعالى في جميع مخلوقاته طبعاً فيهم، ورعاية لهم وصوناً لمصالحهم، اننا نجد في البهائم رئيساً لكل جنس منها يوردها ويصدرها الماء، ويقودها الى الكلأ كالفحل في الإبل والملكة في النحل(٧١).

ويركز أبو عثمان على وحدة الرئاسة فيرى أنه لا يصح بنظره أن يعتلي سُدّة الحكم رئيسان معاً، والسبب في ذلك هو انه اذا وجد رئيسان فانهما لا يلبثان أن يتنازعا وتتضارب

آراؤهما وتصرفاتهما ويتحول ذلك الى قتال: (ان انفراد السيد بالسيادة كانفراد الامام بالإمامة، وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة وتكون الألفة ويصلح شأن الجماعة)[٧٢].

ثم ينتقل الجاحظ للركن الآخر من مستلزمات الرئاسة، وهو الذي يتحدث عن صفات الرئيس وكيفية معاملته لرعية، فيرى أن أساس التدبير هو الرغبة والرهبة، وذلك لأن الناس قد طبعوا على هذين الأصلين، ولا بد للسلطان من مراعاة ذلك لأن الناس لا ينقادون الا بالترغيب وتحقيق آمالهم وطموحاتهم ولا يخضعون إلا لصاحب القوة والمقصود هنا هو الترهيب.

ثم يسرد الجاحظ في مسائل كثيرة لا مجال لذكرها في مسائل الرئاسة ووسائل المُلك، ويفصّل في صفات الحاكم التي يجب أن يتحلى بها كالشجاعة والكرم والحلم والصبر وغيرها، ولكنه يركز على صفة مهمة جداً وهي (الحزم) ويرى أنها الصفة الأساسية والمهمة جدا في ذلك كي يستقيم أمر المُلك[٧٣].

وقد أوضح الجاحظ الكثير من مفاهيم السياسة وأصولها في رسالته (المعاش والمعاد)، وهذه الرسالة كان قد وجهها الى قاضي القضاة المعروف محمد بن أحمد بن ابي دؤاد الذي كان يشرف على المؤسسة القضائية في الدولة العباسية آنذاك، وسوف نفصلها فيما بعد.

لم ينغمر الجاحظ انغماراً مباشراً في الشؤون السياسية الكبرى آنذاك، ولكنه أقحم نفسه في ملابساتها بطريقة غير مباشرة عبر اتصالاته بالشخصيات البارزة المتنافسة، وفي طليعتها ثمامة بن أشرس وابراهيم بن العباس الصولي ومحمد بن عبد الملك الزيات والفتح بن خاقان وأحمد بن أبي دؤاد، كما انه أيضاً أقحم نفسه في خضم الملابسات السياسية – بطريقة غير مباشرة أيضاً – عن طريق مواقفه المؤيدة تأييداً تاماً ومطلقاً لمذهب الاعتزال الذي اعتنقه في البصرة بتأثير أستاذه النظام ودافع عنه بحرارة طوال فترة حكم المأمون والمعتصم والواثق، وتشاغل عنه بشكل مقصود وانهمك في أمور فكرية أخر أثناء مناوءة مذهب الاعتزال – مناوءة سياسية بالدرجة الأولى – ومطاردة أصحابه في عهد المتوكل[٧٤].

وسنأخذ بعض الرسائل السياسية التي كتبها الجاحظ كنموذج لفكره السياسي وبصورة مقتضبة، ونبين أهم مافيها من مفاهيم أو تلميحات سياسية وضعها الجاحظ في ثنايا تلك

الرسائل التي وصلت الينا، رغم أن أكثر رسائله التي تتحدث عن السياسة قد ضاعت ولم يبق سوى عناوينها في المصادر(٧٥).

أولاً: رسالة المعاش والمعاد(*)

كتب الجاحظ هذه الرسالة الى قاضي القضاة محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الذي كان يشرف على الولاة والقضاة في الدولة العباسية بين سنة ٢٣٣هـ – ٢٣٧هـ ، والذي جعلت صلاته بالناس تأخذ صورة أخرى جديدة يحتاج معها الى هذا التبصير الذي يقدمه الجاحظ اليه في هذه الرسالة لتكون هادياً له فيما يستقبل من الأمر الذي لا تمده فيه تجربة سابقة(٧٦).

يستهل الجاحظ الرسالة بمقدمة جميلة يمتدح فيها عقل القاضي وكرم خلقه ويتقرب اليه بعبارات الثناء والاطراء ويندد بخصوم الدولة وبالمعارضين لسياستها دون وجه حق – بنظره – قائلاً: (وخرجت نسيج وحدك أوحدياً في عصرك، حكَّمت وكيل الله عندك وهو عقلك على هواك، وألقيت اليه أزمَّة أمرك، فسلك بك طريق السلامة..). ثم يشكره الجاحظ على النعمة التي أسبغها عليه بقوله: (وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة، والمبتدئ بكل احسان، الشكر لك والقيام بمكافآتك بما أمكن من قول وفعل..)(٧٧).

ثم يبين الجاحظ وفاءه لصاحبه، وكيف أنه يبُرُّ صديقه القاضي بأن يؤلف له كتاباً شاملاً في الأدب والخُلق بقوله: (فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الأمم..)(٧٨).

ثم يحدد الجاحظ موضوع كتابه بأنه وصفٌ للطبائع التي رُكّب عليها الخلق وأسباب شهواتهم، وكيف تستمال قلوبهم، وكيف يصرفون الطبائع المذمومة الى الشيم المحمودة بقوله: (فألّفت لك كتابي هذا اليك، وأنا واصف لك فيه الطبائع التي رُكّب عليها الخلق وفُطرت عليها البرايا كلهم، فهم فيها مستوون، والى وجودها في أنفسهم مضطرون..)(٧٩).

ثم يعلن الجاحظ عن القاسم المشترك في عناصر السياسة وهي الوحدة بين آداب الدين والدنيا، لأن الآداب (آلات) تصلح أن تستعمل في الدين كما تصلح أن تستعمل في الدنيا، فهي وسائل لتحقيق الخير في المعاد والمعاش على ذلك النحو الذي أورده في الربط بينهما(٨٠).

ويعلل الجاحظ ذلك بقوله: (وانما أصول التدبير في الدين والدنيا واحدة، فما فسدت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا، وكل أمر لم يصحَّ في معاملات الدنيا لم يصح

في الدين. انما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط، والحكم ها هنا الحكم هناك، ولولا ذلك ما قامت مملكة، ولا ثبتت دولة، ولا استقامت سياسة)[٨١].

ثم يبين أن الآداب وضعت على أساس طبائع الناس، والتي من أهمها حب المنافع وكره المضار، واذا ترك الناس وطبائعهم انساقوا مع الهوى وابتعدوا عن الفضائل نظراً للأنانية المستولية عليهم، فكان لا بد من وازع أو رادع ومن تربية وتأديب، والتأديب يقوم على أمرين هما الترغيب والترغيب فيقول: (فالرغبة والرهبة أصلا كل تدبير، وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت، فاجعلهما مثالك الذي تحتذي عليه وركنك الذي تستند اليه..)[٨٢].

ولكن الرغبة والرهبة لا تصلحان الا اذا قرنتا بالعدل، فالعدل هو الأصل الثالث للسياسة، وهو يعني الانصاف والمساواة، ويتجسد ذلك بقوله: (فاجعل العدل والنَّصَفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك)[٨٣].

ثانياً: رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

كتب الجاحظ هذه الرسالة بناءاً على طلب الفتح بن خاقان، بعد أن توطدت أواصر التعاون والتآزر بينهما على خدمة الخلافة، أراد الجاحظ من خلال تأليف الرسالة تعميق أواصر الأخوة بين جميع عناصر جند الخيفة في مواجهة أولئك الين يريدون إشاعة روح الفرقة والانقسام[٨٤].

ويتألف الكتاب من جزأين كتبا في فترتين متباعدتين، فكتب الجزء الأول في عهد المتوكل والجزء الثاني في عهد المعتصم، ثم جمعهما في كتاب واحد وقدمهما الى الفتح بن خاقان. وقد زعم الجاحظ أنه وضع هذا الكتاب عن جند الخلافة ليؤلف بين قلوبهم ان كانت مختلفة، وليزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة، وليخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب[٨٥].

وبالتدقيق في فحوى الرسالة نرى أن الجاحظ وفي أكثر من موضع يحاول أن يدعو الى الوفاق، فقد كانت حالة الجند من حيث اختلاف عناصرهم مما يثير القلق، فضلاً عن وجود أطراف تحاول توسيع ذلك الاختلاف وتأريث الخصومة بينهم باستثارة العصبيات الكامنة فيهم.

ويرجح الاستاذ الحاجري أن هؤلاء المقصودين في صدر كتابه عن طوائف الساخطين على الخلافة والمزورين عن السلطان، فيتخذ سخطهم سبيله في التعبير عن نفسه باثارة الفتنة وايقاد نار الخلاف(٨٦).

وفي هذا السياق يبين لنا الجاحظ بعض تلك الاشكالات التي تعرضت لها الدولة من هؤلاء الناقمين، وحاول أن يرد عليهم فقال: (فان السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط..ومن معجب برأيه ذي خطل في بيانه مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ووكيل لسكان المملكة، يضع نفسه في موضع الرقباء، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء..)(٨٧).

ثم يعود فيصنف الفرقة الثانية التي تعطل عمل الدولة ببث دعايات والأراجيف التي تعمل على الفرقة والتناحر فيقول: (وصاحب فتنة خامل في الجماعة رئيس في الفرقة، نعّاق في الهرج، قد أقصاه عز السلطان، وأقام صغوه ثقافة الأدب، وأذله الحكم بالحق، فهو مغيظ لا يجيد غير التشنيع، ولا يتشفى بغير الإرجاف، ولا يستريح إلا في الأماني، ولا يأنس إلا بكل مرجف، كذاب ومفتون مرتاب وحارض لا خير فيه..)(٨٨).

ومن هذا الوصف الدقيق يستعرض أبو عثمان مهاراته في تشخيص الحالات الشاذة التي تعكر صفو سياسة الدولة وتثير الأحقاد في المجتمع، فهو يتحدث عن أناس يعرفهم حق المعرفة قد شكلوا طبقات ناقمة على سياسة الدولة، والتشنيع على الخليفة واثارة الفتنة بين هذه العناصر المختلفة التي يتألف منها جند الدولة.

لقد تحدث الجاحظ عن عن كل طائفة من تلك الطوائف التي يتشكل منها جند الخلافة وهم: العرب والترك والموالي والخراسانيين وذكر مآثرهم ومناقبهم التي تميزوا بها، وتحدث أيضاً عن محاولة التقريب بين هذه الطوائف والتأليف بين مشاعرهم(٨٩).

لقد صرح الجاحظ بمنهجه العلمي والفكري في تلك الرسالة فقال: (..سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم، وكتابنا هذا الذي تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة..)(٩٠).

والملاحظ في فحوى رسالة الجاحظ هذه يرى آثار الامتثال لأمر الدولة والسلطة في معالجة هذه المسألة الخطيرة، وتهدئة روح الفتنة التي أخذت تتسلل بين الجند، فضلاً عن كونه مسحاً ميدانياً لطبقات المجتمع وتحليل لتوجهاتهم السياسية والمجتمعية، وذلك الأمر اشتهر به الجاحظ في تصويره وتسجيله لدقائق وصغائر الحياة اليومية وكل ما يكتنفها من غرائز وطبائع وعلاقات.

لقد كان الجاحظ في معظم ما ألّف من كتب مناقب الأقوام والقبائل والأسر وفضائل المدن يبحث عما يجمع ولا يفرّق، ويحاول ألاّ يعطي قوماً فوق ما يستحقون، ولا يبخس قوماً شيئاً من حقهم. وكان المعيار الأساس الذي يقيس به قيمة الانسان هو مقدار عمله النافع للناس(٩١).

ثالثا: رسالة النابتة

كان للأحداث التاريخية الكبيرة التي حدثت بعد عصر الرسالة أثرها في زعزعة وحدة الأمة وفرّقت كلمتها، وذلك بعد حادثة مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وهنا تتبلور نظرة الجاحظ السياسية في استعراضه وتقويمه لتلك الأحداث.

فهو يرى أن كل الانجازات التي تحققت في عصر النبوة وما تلاه في عهدي الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وفترة من حكم عثمان، تأتي حقبة الفتن وما صاحبها من نزاعات عصفت بوحدة الأمة بعد مقتله، فهو يستنكر مقتل الخليفة ويقول ان قتلته ارتكبوا جريمة شنعاء (إذ اجتلبوا دماً لا تطير رغوته ولا تسكن فورته ولا يموت ثائره ولا يكلّ طالبه، وكيف يضيع دم، الله وليه والمنتقم له)(٩٢).

ويزيد الجاحظ في شناعة تلك الجريمة الأساليب الوحشية التي لجأ اليها القتلة فيقول: (لقد خبطوه بالسلاح وبعجوا بطنه بالحراب وشدقوا هامته بالعَمَد، وضربوا نساءه، ثم وطأوا أضلاعه بعد موته ، وألقوا جسده على المزبلة، فعلوا ذلك بعد السب والتعطيش والمنع من القوت)(٩٣).

ويرى الجاحظ ان قتلة عثمان خالفوا تعاليم الدين الاسلامي الذي يحرم دم المؤمن أو الفاسق إلا قتل من ارتد عن الاسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمناً على عمد، أو رجل عدا على الناس بسيفه، وعثمان ليس من هؤلاء، وانما هو مؤمن منكبّ على قراءة المصحف)(٩٤).

ثم يعود الجاحظ ليوضح ذلك بصورة فيها شيء من جدال الكلاميين ليدحض حججهم ويفنّد آراءهم فيقول: (واذا سلّمنا أن قتلته كانوا على حق فيما قذفوه به أو ادعوه عليه، فانهم كان بوسعهم أن يتجنبوا قتله وذلك بأن يقتصّوا منه فيحبسوه ويصادروا أملاكه)[٩٥].

وبعد تلك الحادثة الأليمة يبدأ فصل جديد من حياة الأمة، بتولي الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إمرة المؤمنين، ولكن قدر الأمة يبقى في اضطراب ومشاكل لم تهدأ إلا بعد سنين طويلة تركت وراءها مآس ومآلات خطيرة، وبقي جرح الأمة ينزف بعد اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على يد ابن ملجم الآثمة.

وهنا كان للجاحظ رأي بتلك الفاجعة الأليمة والتي شكّلت الجرح الثاني في الأمة، فكان رأيه في مقتل علي كرأيه في مقتل عثمان، واعتبار علي شهيداً في سبيل الدين، واعتبار ابن ملجم شقياً يستحق النار واللعنة)[٩٦].

ثم يعود الجاحظ فيسرد طبيعة الأحداث التي جرت بعد ذلك والذي شكّل الأمويون محور الصراع فيه مع العباسيين منذ ازاحتهم عن السلطة عام ١٣٢هـ، ولم تنته اشكالاتهم الفكرية على الساحة السياسية في العصر العباسي، فقد كان لهم الأنصار والمؤيدين وان لم يظهروا علانية، وبقيت أفكارهم محل انتقاد أو تأييد لكثير من الكتاب، ومنهم الجاحظ الذي انتقد مؤيديهم الذين كانوا يدعون (بالنابتة) أو ما أطلق عليه (بالحشوية) فنرى الجاحظ ينال منهم نيلاً عظيماً وقاسياً وجرّدهم من كل فضيلة. ولكنه في الوقت عينه نراه يمتدحهم بافراط في كتابات أخرى مُبدياً اعجابه بسياستهم في الادارة والحكم فضلاً عن بلاغتهم، وهذا الاسلوب يراه القارئ تناقضاً في أفكار الجاحظ، ولكنه تبيان لآراء عديدة طرحت في وقته وهو ينقلها بدوره ولكنه لا يتبناها[٩٧]. وهنا لا بد أن نشير أن هذه الرسالة (النابتة) قد جاءت مسايرة لما تريده السلطة العباسية آنذاك والمتمثلة بالخليفة المأمون الذي حاول أن يذم الأمويين على المنابر ولكن الفقهاء منعوه من ذلك[٩٨].

لقد كان سقوط الدولة الأموية على يد العباسيين الذين خلفوهم في الحكم، والذي يراه الجاحظ أهم تحول جديد حدث في تلك الحقبة بسبب دخول عناصر جديدة في المجتمع الاسلامي، ولكننا مع ذلك نراه يؤيد بني العباس ويذكر أخبار خلفاءهم وأعمالهم دون اعتراض أو نقد[٩٩].

ويختم الجاحظ رسالته المزعومة بذكر الشعوبية، فيراها قد انقادت للعصبية وأبغضت العرب، والعصبية برأي الجاحظ (لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها)[١٠٠].

ورغم أن الكتاب – الشعوبية – لم يصل الينا، ولكن اسلوب الجاحظ فيه لا يبعد عما جاء في مقدمة كتاب البخلاء حول مطاعن الشعوبيين، كما لا يبتعد عن اسلوب فصل كتاب العصا في البيان والتبيين الذي يُظن أنه مقطع من كتاب الشعوبية[١٠١]. ولو جئنا ندرس كل كتب الجاحظ لاحتجنا الى وقت طويل جداً، وقد اكتفينا بهذه النماذج للتدليل على الاسلوب السياسي الذي كان يتبعّه هذا المفكر[١٠٢].

لقد تصدى الجاحظ بقلمه لمحاولات بعض الكتّاب الشعوبيين الذين حاولوا طمس معالم الحضارة العربية الاسلامية في كل محاولاتها واستبدالها بثقافات أعجمية تحاول طمس معالم الحضارة العربية الاسلامية في لغتها وآدابها وأنسابها وعاداتها وتقاليدها[١٠٣].

لقد أرجع الجاحظ سر تعصب الشعوبية ضد العرب الى (طول جثوم الحسد على أكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزي أهل كل لغة وعللهم على اختلاف شاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما على كل شيئ من ذلك ولم اجتلبوه ولم تكلفوه لأراحوا أنفسهم ولخفّت مؤونتهم على من خالطهم)[١٠٤].

وكان الجاحظ من المبرّزين في هذا المجال، فقد ألّف رسالة في ذم الكتّاب حاول أن يشخص مظاهر الانحراف عن الثقافة العربية الاسلامية التي لاحضها عليهم واستهانتهم بها[١٠٥].

ولم يقتصر الجاحظ جهده على مواجهة الشعوبية والتنظير لوحدة الأمة والثقافة، وانما سعى بكل طاقاته نحو تأليف قلوب مختلف الأقوام التي تتألف منها الأمة، فكتب في مناقب الترك وفي فخر السودان على البيضان، حاول فيها أن يبرّز فضائل كل قوم بما يقوي روح الوحدة والتآزر بينهم[١٠٦].

ولم لا يكون كذلك وهو أحد كبار المعبرين عن فكرة وحدة الأمة وتماسك عناصرها وأجناسها، والحفاظ على أصالتها العربية، لأن فكرة وحدة الأمة كانت من صميم رسالة الاسلام، ولأنها تنسجم مع أسس فلسفته في الانسان، ولأنها كانت أساس فلسفة الخلافة في الحكم[١٠٧].

وأخيراً فقد حاول الجاحظ أن يضع حجر الأساس لوحدة أبناء دار الاسلام في إطار العروبة والاسلام، ولم يحاول أن يتنكّر لخصائص كل قوم ومزاياهم[١٠٨]..ويختم الجاحظ فلسفته الانسانية التي تدعو الى التسامح والوحدة بقوله: (ان التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنبات والموات، وقد تختلف الجواهر وكلها كريم وتتفاضل العتاق وكلها جواد)[١٠٩].

الخاتمة

كان الجاحظ ولا يزال إمام البيان وأستاذ الأدب وشيخ أدباء العرب بلا منازع، ويشهد على ذلك شهرته الأدبية التي بلغت كل أفق ووصلت الى كل قطر، ويكفي أن لقبه أصبح شعاراً لمدرسة جامعة في العلوم والآداب والبلاغة وصنوف الكلام.

وكان الجاحظ قد بدأ اتصاله بالسلطة العباسية عبر مراحل بدأها في البصرة ثم بغداد ثم سامراء اتصل خلالها بالخلفاء والوزراء والأمراء، واستمر بالتقرب من السلطة حتى أصبح كاتباً شبه رسمي للدولة العباسية، مدافعاً عن أفكارهم التي مالوا اليها، وساهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة في صنع سياسة الدولة.

وفضلاً عن ذلك كان الجاحظ أحد كبار المعبرين عن وحدة الأمة وتماسك عناصرها وأجناسها والحفاظ على أصالتها العربية، وما رسائله السياسية التي كتبها وحرص على ايصالها الى الخليفة أو الوزير أو من له الأمر والنهي في الدولة، وفصّل في تلك الرسائل جملة أمور ونصائح اقتضت مصلحة العباد والبلاد في أن تكون على هدي من الشريعة وتناسب كل أفراد المجتمع الاسلامي باختلاف توجهاته.

المصادر

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ).

١- الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

- البلخي، عبد الله بن أحمد (ت٣١٩هـ).

٢- طبقات المعتزلة، تحقيق: فؤاد سيد، تونس، ١٩٧٤م.

-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الليثي (ت٢٥٥هـ).

٣- الحيوان، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

٤- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت.

٥- رسائل الجاحظ، شرحها محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

٦- رسائل الجاحظ، شرحها علي بو ملحم، ط١، دار الهلال، ١٩٨٧م.

- الحصري، علي بن ابراهيم القيرواني، (ت٤٥٣هـ).

٧- زهر الآداب وثمر الألباب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

- الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ).

٨- معجم الأدباء، دار الفكر، بيروت، بلات.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ).

٩- تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ).

١٠- وفيات الأعيان، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، ١٩٦٨م.

- الذهبي، شمس الدين أحمد بن محمد (ت٧٤٨هـ)،

١١- العبر في خبر من غبر، تحقيق، صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٢- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ).

١٣- تاريخ الخلفاء، ط١، مكتبة الرباط، بغداد، ٢٠٠٧م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ).

١٤- تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ).
١٥- الفخري في الآداب السلطانية، تحقيق: عبد القادر محمد، دار القلم العربي، بيروت.
- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ).
١٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت٨٤٠هـ).
١٧- طبقات المعتزلة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م.
١٨- المنية والأمل، اعتنى به توما أرتلو، حيدر آباد، الدكن، ١٣١٦هـ.
- القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي (ت٣٥٦هـ).
١٩- الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المسعودي، علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ).
٢٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن النديم، محمد بن اسحاق (ت٣٨٥هـ).
٢١- الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧م.

المراجع

- أمين، أحمد.
٢٢- ظهر الاسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، بلا ت.
- بو ملحم، علي.
٢٣- المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.
٢٤- كشاف آثار الجاحظ، ط١، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٧م.
- جعفر، نوري.
٢٥- الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م.
- جبر، جميل.
٢٦- الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، دار صادر، بيروت، بلات.
- جبري، شفيق.
٢٧- الجاحظ معلم العقل والأدب، ط٢، دار البشائر، دمشق، ط٢، ٢٠٠١م.

- الحاجري، طه.
٢٨- الجاحظ حياته وآثاره، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
- حسين، محمد توفيق.
٢٩- مفهوم الانسانية والعنصرية عند الجاحظ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥م.
- خفاجي، عبد المنعم.
٣٠- الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء، الاسكندرية، ٢٠٠٤م.
- سلوم، داود.
٣١- الجاحظ منهج وفكر، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م.
- زكي، أحمد كمال.
٣٢- الجاحظ، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٧م.
- ضيف، شوقي.
٣٣- تاريخ الأدب العربي -العصر العباسي الأول- ط٨، دار المعارف، ١٩٨٢م.
٣٤- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.
-فوزي، فاروق عمر.
٣٥- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، نشر جامعة بغداد، ١٩٨٠م.
- كرد، محمد علي.
٣٦- أمراء البيان، دار الأمان، بيروت، ١٩٦٩م.
- الملاح، هاشم يحيى.
٣٧- الحضارة العربية وآفاق المستقبل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.
- موسى، منيف.
٣٨- الجاحظ في حياته وفكره وأدبه، ط١، دار المشرق العربي الكبير، ١٩٨٢م.
- نوري، موفق سالم.
٣٩- الجاحظ واتجاهاته السياسية، مقال منشور على شبكة الانترنت ، ٢٠١٥م.

هوامش البحث

[١] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، ص ٥٩٠.

[٢] علي بو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ص ٨.

[٣] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٢٨٨/١؛ منيف موسى، الجاحظ في حياته وفكره وأدبه، ص٢٥.

[٤] فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص٣٤٩.

[٥] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٢؛ علي بو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ص١٧.

[٦] الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٣٠٢/١؛ منيف موسى، المصدر السابق، ص ١٦.

[٧] الجاحظ، البيان والتبيين، ٦٤/٤.

[٨] أحمد أمين، ظهر الاسلام، ٣٢/١.

[٩] عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي.

[١٠] أحمد كمال زكي، الجاحظ، ص٥.

[١١] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، ص ٧٤-٧٥.

[١٢] منيف موسى، المصدر السابق، ص ٢٢.

[١٣] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١١٣/١٦.

[١٤] أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري اللغوي العلامة الاخباري، صاحب التصانيف الكثيرة، روى عن هشام بن عروة وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم، وكان أحد أوعية العلم، مات سنة ٢١٠هـ.
الذهبي، العبر في خبر من غبر، ٢٨٢/١.

[١٥] أبو الحسن علي بن محمد البصري الاخباري، صاحب التصانيف في المغازي والأنساب وغيرها، سمع من ابن ذئب وطبقته، وثقه ابن معين وغيره، توفي سنة ٢٢٤هـ.
ابن النديم، الفهرست، ص٩١٣.

[١٦] أبو سعيد عبد الملك بن قريب البصري اللغوي الاخباري، سمع من ابن عون والكبار، وأكثر عن أبي عمرو بن العلاء، وكانت الخلفاء تجالسه وتحب منادمته، وله عدة مصنفات، توفي سنة ٢١٦هـ.
الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٧٥/١.

[١٧] ابن المرتضى، المنية والأمل، ص ٣٨.

[١٨] الحاجري، المصدر السابق، ١٢٠-١٢٣

[١٩] المرزباني، معجم الشعراء، ص ٢٨٣؛ الجاحظ، الحيوان، ٢٢٨/٢.

[٢٠] الجاحظ،، البيان والتبيين، ٥١/١؛ الحاجري، المصدر السابق، ص١٢٣.

[٢١] الجاحظ، البيان والتبيين، ٣٣٤/١؛ الحاجري، المصدر نفسه، ص١٢٣.

[٢٢] شوقي ضيف، المصدر السابق، ص٥٨٩؛ بو ملحم، المصدر السابق، ١٢-١٥.

(٢٣) أحمد كمال زكي،الجاحظ، ص٢٣.

(٢٤) بو ملحم، كشاف الجاحظ، ص١٢.

(٢٥) الحاجري، المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٢٦) انظر مقدمة كتاب (البخلاء) للجاحظ، نشر دار المدى للثقافة، دمشق، ٢٠٠٧م.

(*) اليزيدي: هو يحيى بن المبارك البصري النحوي اللغوي، أحد القراء الفصحاء، أخذ عن الخليل، كان يجلس مع الكسائي في مجلس واحد، وله تصانيف كثيرة، توفي سنة ٢٠٢هـ.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٨٣/٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٢١/٨.

(٢٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ٣٣٤/١.

(٢٨) شوقي ضيف، تاريخ الأدب في العصر العباسي الثاني، ص٥٩٠؛ هاشم يحيى الملاح، الحضارة الاسلامية وآفاق المستقبل، ص١٤١.

(٢٩) منيف موسى، المصدر السابق، ص٥٣.

(٣٠) بو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ص١٦.

(٣١) الحاجري، المصدر السابق، ص٢١١؛ الملاح، المصدر السابق، ص١٤٢

(٣٢) منيف، المصدر السابق ص٥٤؛ شوقي ضيف، المصدر السابق، ص٥٩٠.

(٣٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٧٧/١٦.

(٣٤) الجاحظ معلم العقل والأدب، ص٤١.

(٣٥) أمراء البيان، ص٢٨٨.

(٣٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢١٩/١٢؛ جميل جبر، مجتمع الجاحظ، ص١١.

(٣٧) ومن أنصار هذا الرأي الأستاذ منيف موسى الذي قال: (نفهم من هذا الكلام أن الجاحظ الذي ترأس ديوان الرسائل أدباً أبى إلا أن تكون الزعامة له أيضاً في دولة السياسة، وهذا منزع لتصدر الزعامة في عهده ليصير اليه كل أمر). انظر كتابه (الجاحظ في حياته وفكره ص٥٥).

(٣٨) أفرد الأستاذ شفيق جبري في كتابه "الجاحظ معلم العقل والأدب" فصلاً قصيراً عنوانه "تهكم الجاحظ" أبدع فيه ووضح أسبابه ومعانيه الظاهرة والباطنة. ينظر كتابه ص١٩٣.

(٣٩) الجوانب السيكولوجية في أدب الجاحظ، ص٢١.

(٤٠) المصدر نفسه، ص١١.

(٤١) الجاحظ ومجتمع عصره، ص٧٧.

(٤٢) كشاف آثار الجاحظ، ص٢٣.

(٤٣) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٢؛ شوقي ضيف، المصدر السابق، ص٥٩٠.

(٤٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣١٢.

(٤٥) بو ملحم، كشاف آثار الجاحظ، ص٢٦. وانظر رسالته مناقب الترك، ٣١/١.

(٤٦) المسعودي، مروج الذهب، ١٠١/٤؛ ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣١.

(٤٧) ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص٦٩.

(٤٨) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ١٠٦/١٦؛ الحصري، زهر الآداب، ص١٦٥.

(٤٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ١٧/١٦.

(٥٠) الجاحظ، الحيوان، ١٤٩/٦.

(٥١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٧٦/٢.

(٥٢) تاريخ الطبري، ٢٩٥/١٠. ومما يروى بعلم وثقاقة ابن أبي دؤاد وعظم منزلته عند المأمون أنه استدعاه مرة عندما جرى بمجلسه ذكر الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة، واختلف الحاضرون في ذلك، فدخل ابن أبي دؤاد فعدّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكناهم وأنسابهم، فأعجب به المأمون وولاه القضاء وأوصى المعتصم – من بعده – بتقريبه والاعتماد عليه.

(٥٣) شفيق جبري، الجاحظ معلم العقل والأدب، ص٤٤.

(٥٤) المسعودي، مروج الذهب، ٣٦٤/٤.

(٥٥) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٥٦) المسعودي، مروج الذهب، ١١٤/٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٤١/٣؛ كشاف الجاحظ، ص٢١.

(٥٧) جبري، المصدر السابق، ص٤٥.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٧/٧؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ١٤١/٣.

(٥٩) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ١١٠/١٦.

(٦٠) داود سلوم، الجاحظ منهج وفكر، ص١٣.

(٦١) المصدر نفسه، ص١٣.

(٦٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٥.

(٦٣) شوقي ضيف، المصدر السابق، ص٥٩١.

(٦٤) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٤.

(٦٥) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ١١٤/١٦.

(٦٦) موفق سالم نوري، الجاحظ واتجاهاته السياسية، ص٥.

(٦٧) منيف موسى، المصدر السابق، ص٥٩.

(٦٨) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٦.

(٦٩) رسائل الجاحظ ، رسالة النساء، ص١٠٧؛ بو ملحم، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٧٠) بو ملحم، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٧١) رسائل الجاحظ ، رسالة النساء، ص١٠٧؛ بو ملحم، المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(٧٢) رسائل الجاحظ، رسالة النساء، ص١٠٧.

(٧٣) انظر رسالته (المعاش والمعاد) ص١١١.

(٧٤) نوري جعفر، المصدر السابق، ص١٢.

(٧٥) للمزيد ينظر كشاف آثار الجاحظ، ص ٢٧٦.

(*) وتسمى هذه الرسالة أيضاً (رسالة الآداب)، كما وردت في معجم الأدباء لياقوت الحموي، وفي العقد الفريد لابن عبد ربة الأندلسي.

(٧٦) الحاجري، المصدر السابق، ص٣٢٨.

(٧٧) رسالة المعاش والمعاد، ٦٩/١.

(٧٨) رسالة المعاش، ص٧٢.

(٧٩) رسالة المعاش، ص٧٢.

(٨٠) الحاجري، المصدر السابق، ص٣٢٨.

(٨١) الرسائل، رسالة المعاش، ص٧٣.

(٨٢) الرسائل، رسالة المعاش، ص٧٧.

(٨٣) الرسائل، رسالة المعاش، ص٧٦.

(٨٤) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٥.

(٨٥) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ٣١/١؛ الحاجري، المصدر السابق، ص٣٦٩.

(٨٦) الحاجري، المصدر السابق، ص٣٦٩.

(٨٧) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ٩/١-١٠.

(٨٨) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ١١/١.

(٨٩) الحاجري، المصدر السابق، ص٣٧٠.

(٩٠) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ١٢/١.

(٩١) محمد توفيق حسين، مفهوم الانسانية والعنصرية عند الجاحظ، ص٦٤.

(٩٢) الرسائل، رسالة النابتة، ٩/١؛ علي بو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص٢٨٠.

(٩٣) الرسائل، رسالة النابتة، ٧/١-٨.

(٩٤) الرسائل، رسالة النابتة، ٨/١.

(٩٥) الرسائل، رسالة النابتة، ٩/١.

(٩٦) الرسائل، رسالة النابتة، ١٠/١؛ علي بو ملحم، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٩٧) وفي هذا يقول الاستاذ أحمد كمال زكي في كتابه (الجاحظ) ص٧: يمكن أن نلاحظ هذا الاسلوب عند الجاحظ، لأنه يكتب في الشيئ ونقيضه متحدثاً عن الديك والكلب مثلاً حديثاً يبدو عادياً، ولكننا لا نلبث أن نتبين صلته الدقيقة بالوضع السياسي والاجتماعي، كما نتبين هذه الصلة بصراحة في رسالته المشهورة (مناقب الترك). وانظر كتابه المنسوب اليه (التاج في أخلاق الملوك)، تحقيق أحمد زكي باشا، طبعة القاهرة، ص١٥.

(٩٨) تاريخ الطبري، ٦١٥/٨ حوادث سنة ٢١١هـ.

(٩٩) بو ملحم، المصدر السابق، ص٢٨٢.

(١٠٠) الرسائل، رسالة النابتة، ٢٠/١.

(١٠١) منيف موسى، المصدر السابق، ص١١١.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص١١٢.

(١٠٣) شوقي ضيف، المصدر السابق، ص٧٥-٧٦.

(١٠٤) البيان والتبيين، ١/١٢-١٤.

(١٠٥) الملاح، المصدر السابق، ص١٤٨.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص١٥١.

(١٠٧) محمد توفيق حسين، المصدر السابق، ص٦٢.

(١٠٨) الملاح، المصدر السابق، ص١٥٢.

(١٠٩) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ١/١٥.

Political trends in Al-Jahid's literature

Dr.Mohammed Kareem Al-jumaily

College of Education- Iraqi University

E-Mail: dr.m.aljumaily@gmail.com

Al-Jahid Known as a writer impose himself in his own time and in subsequent ages, In addition, he was a political veteran who has lived his life defending his opinions and ideas. Al-Jahid was a senior expressive for the nation's unity and consistency of its elements and races and preserve Arabic authenticity, Because the idea of the nation's unity was one of the core messages of Islam, and is the base of succession in governance philosophy. So his books came in the virtues of clans, tribes, cities that are looking for combining what does not differentiate in order to establish a balance between people of different races.